من أخلاقنا :

الأمــــانة ... !

للأستاذ على الطنطاوى

جعل النبى صلى الله عليه وسلم للمنافق آية يعرف بها بين الناس، ومن آياته أنه إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان. وهذه الثلاث أركان الحياة الخلقية الاجتماعية، وتضافرت الآثار على ذم الكذب وأهله، ومدح الصدق وأهله، وبيان خطر الأمانة وأنها عرضت على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وهن كن أقوى عليها، وحملها على ضعفه الإنسان... وإن المسلم ربما ألمّ ببعض الذنوب ولكنه لا يكذب أبداً، كما جاء فى الحديث.

ثم إنك مع ذلك كله تجد المنتسبين إلى الإسلام اليوم، من أرباب الصناعات وأهل السوق، أكذب لهجة، وأخلف وعداً، وأضيع لأمانة من كثير ممن ليسوا مسلمين، حتى صار المثل يضرب بالوعد الشرقى فى خلفه وإضاعته والتأخر عنه، وصار من يريد أن يؤكد وعداً يصفه بأنه (وعد أوروبى)!

اللهم إن هذا لمن العجب العجاب!!

* * *

إن الله بيّن خطر الأمانة، وأنزلها هذه المنزلة، وخوّف من حملها لأنها جماع الأخلاق، وسلكة عقد الفضائل، وعمادها، فما من شعبة من شعب الأخلاق والخير الإجتماعى الا اليها مردّها، وما خصلة من خصال الشر إلا والخيانة أساسها وحقيقتها، وليست الأمانة هى أن تحفظ الوديعة حتى تؤديها إلى أصحابها (فقط)، فان هذه صورة من صورها، وشكل من أشكالها، وإن السلطان فى يد الموظف أمانة، فان وضعه فى غير موضعه، أو اتخذه وسيلة إلى جلب منفعة له أو لأسرته أو لأصحابه فقد خان أمانته، والدرجات أمانة فى يد الأستاذ الممتحن يوم الإمتحان، فان أعطى منها واحدة لغير مستحقها أو منع واحدة من يستحقها أو راعى فى منحها شفاعة أو صداقة أو بغضاً أو موجدة فقد خان أمانته، والقدرة على الحكم أمانة فى يد القاضى فان زاغ عن الحق شعرة فقد خان والعمل أمانة فى يد الأجير المستصنع، فان قصر فى تجويده أو أفسد فيه شيئاً ولو كان الفساد خفياً لا يظهر فقد خان، واعتقاد الناس بك الصلاح والتقى أمانة فى يدك، فان اتخذت هذا الاعتقاد سبباً إلى جمع المال، وعملت من لحيتك العريضة وعمامتك المنيفة شبكاً لاصطياد الدنيا، أو كتمت الحق ابتغاء الحظوة عند العامة أو الزلفى إلى الحاكم فهى خيانة، إلى غير ذلك من الصور والأشكال.

بل إنك إذا دققت وتلطفت وجدت هذه الجوارح التى أعطاكها الله أمانة فى يدك، فإذا نظرت بعينك إلى حرام أو حركت به لسانك أو خطوت اليك برجلك، أو مددت اليه يدك، فقد خنت أمانتك، بل إن عمرك كله أمانة لديك، فلا تنفق ساعة منه إلا فيما يرضى (صاحب الأمانة)!

فأين المسلمون اليوم من هذا؟

لقد رأيت من قلة الأمانة، عند الصناع والتجار والعلماء والجهلاء ومن يظنّ به المغفلون الولاية ويرونه قطب الوقت (١) ما لا ينتهى حديثه ولا العجب منه، وما خوفنى الناس أن أعاملهم، حتى جعلنى أحل هما كالجبل ثقلا كلما عرضت لى حاجة لا بد فيها من معاملة الناس، ولا والله لا أتألم من اللص يتسور علىّ الجدار ويسرق الدار، كما أتألم من الرجل يظهر لى المودة ويعلن التقى، فاذا كانت بينى وبينه معاملة، وتمكن منى أكلنى بغير ملح... وتعرق عظامى!

تذهب إلى الخياط الحاذق الذى ألفته وألفك واستمررت على معاملته عمرك، والخياط من شرور المدنية لا يستغنى اليوم عنه، وقد انقضى زمان كان الرجل فيه يخيط لنفسه أو يخيط له أهله. وكان الثوب يتخذ فيه لمجرد الستر والدفء، ولم يبق لك منجى من أن تؤم الخياط تحمل اليه (الجوخ) الثمين، وتسأله أن يضرب موعداً لا يخلفه ينجز لك فيه ثوبك الذى تريده للعيد أو للزفاف أو للسفر. ولكل واحد من أولئك وقت لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فالعيد لا ينسأ لك فى أيامه، والزفاف ان أعلنته لا يؤجل، فيعدك

(١) حكاية القطب والأوتاد لا أصل لها فى نقل ولا عقل، ولم يرو فى ذلك إلا حديث ضعيف فى (الابدال) لا يثبت بمثله حكم، فليفهم ذلك

ويؤكد الوعد ، فاذا جئت فى اليوم الموعود وجدته لم يمس بعد قماشك ، فاذا زجرته أو أنبته أخذك باللين وراغ منك وحلف لك مائة يمين غموس ... إنه نسى أو مرض ، أو إنه لم يعدك فى هذا اليوم ولكن كان (سوء تفاهم) ، وإنك راجع فى يوم كذا فواجد ثوبك معداً ، وتعود ويعود إلى كذبه ، حتى يمضى العيد أو الزفاف ، ولا يبقى للثوب فائدة ، وربما جعله قصيراً أو ضيقاً أو ممتلا أو مضاعفاً أو مجوفاً ... أو على خلاف ما استصنعته عليه ولا حيلة لك فيه ، ولا سبيل إلى إصلاح مافسد ، فتلبسه مكرهاً أوتلقيه فى دارك حتى تأكله (العثة) والأرضة ...

وهذه الحال من اخلاف المواعيد ، واختلاق الأكاذيب ، عامة فى أرباب الصناعات فى بلادنا لم ينج منها الا الأقل الأقل ممن عصم ربك . ولقد وقع لى أنى كنت على جناح سفر إلى العراق ، وقد أعددت له كل شىء ، واتخذت لى مكاناً فى السيارة ولم يبق إلا يوم واحد فخطر لى أن أبعث إلى الكواء[1] بحلتى الجديدة لكيها حتى إذا نزلت بغداد لبستها صالحة ، وبيّنت له استعجالى ونفضت إليه قصة حالى ، ونهيته أشد النهى عن غسلها ، لأنه يفسدها ويؤخرنى عن غايتى ، فما كان منه إلا أن غسلها ، طمعاً بفضل أجرة ينالها ، فأفسدها وجعلنى أسافر وأدعها ...

وآخر من الكوائين غسل معطفى بصابون له مثل رائحة الخنازير الأهلية ... فلم أستطع لبسه وحملته إليه ووبخته ، فما كان منه إلا أن أنكر أن يكون له تلك الرائحة (وإنها لتشم من مسافة فرسخ) ، وقلت : شمها أليس لك أنف ، فشمها بمثل خرطوم فيل . وقال : ما بها شىء ! فكدت أنشق من غيظى وقلت لجماعة عنده : شموا بالله عليكم . فمدوا أنوفهم إليها ونظروا إليه ، وقالوا بلسان واحد مثل مقالته ... فاضطررت إلى أن أخرج فأدفع الثوب إلى فقير وإنى لفقير إلى مثله !

واحتجت مرة إلى عامل يصلح لى طائفة من المقاعد ، أستقبل عليها ضيفى وأكرم بها زوارى ، وهى وحدها التى أخشى اللصوص عليها ، لأنها خير ما فى الدار ، حاشا الكتب ، فدلونى على رجل له دكان ظاهر فى شارع كبير ، وفوقه لوحة كتب عليها اسمه وصناعته ووصف براعته وأمانته ، فأنست به وكان كهلا مشقشق اللسان ، وأخذته فأريته المقاعد واستأجرته لإصلاحها ، ودفعت إليه أكثر الأجرة مقدماً ، وتركته ووكلت أخاً لى صغيراً به ، وذهبت إلى عملى لم أرجع إلا المساء ، فوجدت الرجل قد بعج بطون الكراسى وأخرج أحشاءها ، وكسر عظامها وأرجلها ، ولم يقدر على إعادتها سيرتها الأولى لأنه جاهل بالصناعة ، فهرب وذهبت أفتش عنه حتى قبضت عليه ، وأعدته إلى الدار ، فاجتهد جهده ، فكانت غاية ما استطاعه أنه جعل من مقاعدى المريحة آلات التعذيب ، ومقاعد للأذى ، إن لم يشق ثوب القاعد عليه مسمار ظاهر منها ، ثقبت ظهره خشبة بارزة ، أو كان مجلسه على أحدّ من شوك القتاد ، وقبض الأجرة كاملة غير منقوصة ...

ولو شئت أو لو شاء القراء لسردت ثلاثين واقعة ، ما هذا الذى ذكرت بأشدّ منها ولا أعجب ، فأين تقع الأمانة من نفوس هؤلاء الذين يدعون أنهم من المسلمين .

* * *

وكيف أصنع إذا كان هؤلاء (المسلمون) لا يوثق بهم ، ولا يطمئن إليهم ، أأعامل الأرمنى والروى والصهيونى وأقاطع بنى دينى ووطنى ؟

أما إنه لخطب جسيم — فماذا تصنع المدارس ومعلموها ، والمساجد وواعظوها ، والصحف وكاتبوها ، إذا لم يعلنوا على الخيانة حرباً لا هوادة فيها ولا مسالة حتى يكون النصر عليها ؟ وكيف نعمر الحق يكمل لنا استقلال ، أو تتم سيادة ، أو نجارى شعوب المدنية ونسابقها ، إذا لم تسد الأمانة فينا ، وإذا كان الواحد منا لا يستطيع أن يطمئن إلى أخيه ولا يعتمد على أمانته ؟ وإذا كنا نقلد الغربيين فى الشرور فلماذا لا نقلدهم فى الصدق فى المعاملة والوفاء بالوعد ، والاستقامة فى العمل ؟

أما إن من أشكال الأمانة وصورها ، أن القلم المتين ، واللسان البليغ ، أمانة فى يد الكاتب والخطيب ، فإذا لم يستعملاها فى إنكار المنكر ، والأمر بالمعروف ، والدعوة إلى الإصلاح ، كانا ممن خان أمانته ، وأضاعها ، وفرّط فيها ... فلينتظر لنفسه كل كاتب وشاعر وصحفى وخطيب !

(دمشق) **على الطنطاوى**

(١) أى للكوى